

أفكار في أزمة العقل العربي

عزيز السيد جاسم

على الوطن العربي، وفي تيار الثورة الفكرية واللغوية للعرب. ورغم المداخلات الكثيرة، يمكن الاقتصار على التحديد الآتي - حالياً - وهو أن العقل العربي هو استمرارية التطور الفكري للعرب، إيجاباً وسلباً، في المراحل المتصلة تاريخياً، والتي لا تفصل بينها فجوات تاريخية طويلة ومعقدة.

إن الاستمرارية الفكرية معطاة في الاستمرارية التأريخية الملتحمة منذ البعثة النبوية، وبدء الإسلام، وتوطد الكيان العربي - الإسلامي، وحضارته الإسلامية إلى يومنا هذا.

هذا لا يعني أن الأصول السامية الأولى (سومرية، بابلية، أو مصرية قديمة، الخ) غير واردة في منظورنا عن العقل العربي.

ولكننا نجد في الجو التأريخي، والظروف المتشابهة، والإطار الإسلامي العام، وما ينطوي عليه من طقوس وتقاليد وذكريات، استمرارية مؤكدة لم تحطمها القرون الزمنية المتتالية. فلا تزال أجواء مكة والمدينة، وبغداد، والقاهرة، والبصرة، أجواء إسلامية (من حيث الجوهر) رغم كل الاختراقات الأجنبية الهائلة التي تعرض لها العرب من قبل الغزاة الأجانب، من الروم والفرس والأحباش، والمغول والترك، ومن الاستعمار القديم والحديث.

إننا نغول على هذه الاستمرارية، التي هي بالتأكيد ذات طبيعة

إن هذا الموضوع معقد، ومتنوع، وواسع جداً. وهو يشكل صلب الاهتمام الثقافي، الحضاري للعرب عموماً. مفكرين ومثقفين وأدباء وفنانين، وعاديين.

ولا بُد من المرور السريع في تساؤلنا على نقطتين: الأولى ما يسمى بالعقل العربي. والثانية أزمة العقل العربي.

إن تسمية العقل العربي هي تسمية اصطلاحية في أحسن تقدير، لأنه لا يمكن تحديد مغزاه تحديداً دقيقاً، فهل تعني التسمية العقل العربي بدلالة العرق والجنس؟ وهذا يفترض وجود عقول جنسية وعرقية متعددة، مستقلة بذاتها، تدور حول نفسها، وتتماس (أو لا تتماس) مع سواها.

وحتى إذا ما قُبل الفهم المحدد هذا، فإنه يجزئ إلى ملاحظة حقيقة واقعية، هي أن الواقع العربي يتضمن تاريخياً أشكالا متعددة لـ (العقل العربي) بصورة مذاهب، ومدارس، ومبادئ، وسياسات مختلفة، متناقضة، متناحرة، أو متحاورة متفاعلة.

المقصود - إذن - أن مصطلح العقل السذي ما هو إلا تعبير عن مصطلح آخر هو (الفكر العربي) يخضع هو - بدوره - إلى تساؤلات: هل المقصود به فكر العرب من جهة النسب الجنسي، النسب بالدم، أو هو فكر العرب وغير العرب العائشين

قومية، أي استمرارية عربية لا تُقهر، رغم المآزق والتحديات العظمى التي تعرضت لها.

نتقل الآن إلى معنى الأزمة بين قوسين، أي أزمة العقل العربي. هل هناك أزمة فعلاً؟..

إن موضوع أزمة الفكر العربي يصعب طرحه بدون وضعه في سياقه: أزمة الذات العربية، وأزمة المحيط العربي.

إذ من المؤكد أن في الأمة العربي مجاميع هائلة من الكتاب، والمفكرين، والعلماء والباحثين، وطلبة العلم، والاختصاصيين، وأصحاب المختبرات، وأصحاب البحوث والدراسات داخل الوطن العربي وخارجه.

إن عدد هؤلاء جميعاً لو اشترك في تكوين اطلانطس العلماء لكانت دولة العلماء والمفكرين العرب أكبر من الكيان الصهيوني المغتصب. فبمجموعهم تتأسس دولة علماء صرف.

لكن ما هي الشروط القوية والقاصمة التي تفرط بوحدة الفكر العربي، وقوة فعاليته؟ إنها الشروط السائدة في الوطن العربي، منذ أزمة بعيدة، بنحو أو بآخر، والتي تجد مقاومة إيجابية لها بنحو أو بآخر، في أقطار عربية ناهضة، نوعاً ما، أو توجه بالنهوض.

وتلك الشروط القاصمة، فكرية أيضاً، بمعنى أنها لا تخرج عن نطاق التوصيف الفكري. فما دام الفكر دم الحياة الاجتماعية ونسيجها، فإن أي فصل بين الفكر والحياة الاجتماعية لا فائدة منه. لذلك يستحسن دمج المنطلقات وخطوط السير - في إطار فكري - سهيلاً للمهمة.

بالإمكان فتح الموضوع في ملفين: الأول نقدي، وهو يتناول نقد أزمة الفكر العربي تاريخياً، وصولاً إلى تصور عام، قريب من الاستكناه، ليس نهائياً قطعاً بل هو تقريب. والثاني: علاجي يتضمن المطلوب من العقل العربي، كما ألفنا الاصطلاح.

أسباب الأزمة:

ترجع أزمة العقل العربي إلى أسباب عديدة، أكثرها جوهرية: الوصاية والاستبداد، وخاصة في الظروف التاريخية لاتحادهما القوي الذي نتجت عنه الكوارث لا على صعيد الفكر وحده، بل وعلى جميع الأصعدة السياسية والحضارية والاجتماعية.

ولقد حلت الوصاية المتآزرة مع الاستبداد، في مراحل انعطافية معينة، انحدرت فيها قاطرة المسير العربي بعيداً عن سكتها، وذلك بعد أن تعرضت الأمة العربية إلى مشكلة القيادة المفروضة عليها من خارجها (من الناحية القومية). ولكنها من ذات النسيج المعتقد (من الناحية الدينية).

لقد كانت المرحلة الأولى، مرحلة نور الإسلام الساطع، هي مرحلة القيادة العربية - الإسلامية، المعبرة عن خصائص الواقع العربي الإسلامي، بكل ما تعنيه من مزايا تاريخية.

فكانت تلك القيادة الناشئة في السياق الواقعي لحركة المجتمع العربي تجسد عملية التطور الفكري والسياسي والاجتماعي تجسيدا طبيعياً، يُعبّر عنه بالتطور من صلب الشيء (أي التطور الذاتي).

ولكن، بعد مجيء مراحل أخرى، أضحى فيها قيادة المجتمع العربي المسلم من خارج اللحمة القومية، ولكن باسم النسيج الديني، حدثت مفارقات غريبة على خصوصيات الواقع العربي لم تستطع القسمة الدينية المشتركة طمسها. وسواء أكانت تلك القيادات آتية بالتنسيب الذي حرّته القوى الفاتحة، أو من خلال مواصفات أخرى، فإن التناقض القومي كان جوهرياً وكان يؤثر - بالضرورة - على كيفية تطبيق الرابطة الإسلامية.

لقد ترعرعت قيادات في ظل الوصاية الدينية، للمغول والترك، حتى وإن كانت عربية بالاسم، إلا أنها كانت تندرج ضمن الانشقاق الجديد في البنية العربية - الإسلامية.

ولم تكن تلك القيادات أكثر من أدوات تمثل نوعاً خطيراً في التسلط على الكيان العربي، يحمل كل مصالحه السياسية والاقتصادية من جانب، علاوة على ما يحمل من بدع فكرية من جانب آخر.

لقد كانت خصيصة تلك الوصاية أنها لا تبدو وصاية أجنبية، في الوعي الاجتماعي العمومي للفئات الشعبية العربية الفقيرة والبسيطة، لأنها كانت ذات طابع إسلامي، مدعوم بمعتقدات إسلامية ومناخ إسلامي متقارب. أي إن الوعي العام للفئات الشعبية الفقيرة كان عاجزاً عن رؤية الطابع الأجنبي للتسلط والوصاية، إلا بصورٍ محدودة.

ومن المؤكد أن استقبال الوصاية الدينية غير العربية (أي الشعوبية)، كان يجد الموافقة والتمهيد له من قبل كيانات الحكم التقليدي المفرغ - جوهرًا - من العقيدة الإسلامية، والتي كانت تُمارس وصاية تقليدية، جامدة، متخلفة، تدعي السلفية، وهي لا تتصل بالسلف الصالح بشيء، إلا بالكليشيات الجاهزة، والتعبيرات العلنية، الفوقية، النائية عن المعنى العميق للإسلام.

وسواء، بالحرب، أو بالسلم، اتحدت مصالح الوصاية المحلية بالوصاية الشعوبية، اتحاد التابع بالمتبوع، والمرؤوس بالرئيس، والأداة بالأمر، فحصل انكسار عربي فكري لا مثيل له، لأحقاب زمنية طويلة من الركود، والانهايار، والتخلف، والضياع.

ترتب على ذلك نشوء فراغ فكري كبير، استثمرته الأفكار الظلامية والخرافية لترويج الوعي الرجعي، البدائي، الاستسلامي، الخرافي، وامتلاً الفضاء العربي بوصايات محلية متناثرة من طبيعة أوليغارشية، وإقطاعية، كانت لا تعرف غير النهب والبطش والغباء.

وفي ظل الظروف السياسية والاقتصادية والفكرية السائدة لأزمة طويلة، ولحرمان المواطن العربي من قدرة الوصول إلى المصادر الفكرية الضرورية له لاكتشاف وجوده، إنساناً حراً، بسبب بُعد تلك المصادر عنه، نشأت ظاهرة الازدواجية الثقافية للمواطن العمومي.

فهو يتحد مع المتسلط الأجنبي في العقيدة رسمياً وشعبياً، في جانب، ويتعارض معه - فيما ينبغي - بسبب طبيعة السيطرة الأجنبية عليه في جانب آخر. وهو - في اللحظة الواحدة - يجمع ذلك التناقض فهو مندمج ومتعارض في الآن ذاته، ويلعب الوعي الخرافي البدائي، والخوف من الحرمان الأشد من الحرمان السائد (وهو الحرمان التهديدي الانتقامي) دوراً مسيطراً في إخضاع التناقض لصالح الاندماج بالصورة الكلية السائدة سياسياً وأيديولوجياً. وإذا ما افترضنا تشبيه المجتمع بالكرة فإن غالبية الكرة تمثل الأنموذج السائد للازدواجية الهشة، ولا يتعارض مع ذلك الأنموذج إلا أفراد في القطب الأسفل من المعارضة، قادرون على بلورة أنفسهم من خلال رؤية ذاتية

كفاحية. وكذلك يتعارض مع الأنموذج السائد المذكور بعض أفراد في القطب الأعلى، أي في تركيبة القمة، إذ يصدق أن تفرز مراحل معينة أمراء مثورين، أو متطابقين مع ذواتهم، بصرف النظر عن طبيعة اتجاهاتهم، مع ما يرافق ذلك من شخصيات تقع في دائرة المقربين منهم.

وستظل الازدواجية منبعاً واسعاً، ومعيناً كبيراً لكل التيارات السياسية والفكرية المتذبذبة، والمتطرفة على حدّ سواء، وعلى الصعيدين الجماعي والفردى. إن الوصاية الدينية من طراز شعوبي، والوصاية - الظل (وهي الوصاية المحلية التابعة بكل كهنوتها)، حالت دون قيام عملية النمو الذاتي للعقل العربي. فهي تقمع - لكونها ذات طبيعة تنارية بطاشة - كل تنوّير فكري من أي مستوى كان، وخاصة تنوّير المفكرين والعلماء. فكانت تسلط النعمة عليهم باسم الادعاءات الأيديولوجية ذات القداسة، مدعومة بقضاء مزيف، مهرج، نفعي، وبجمهرة الغوغاء الذين يستطنون الازدواجية، ويفسرون منها في تصريحات الهستيريا الانتقامية الممغنطة - شعورياً ولا شعورياً - بمقاطع اعتقادية، تعصبية.

وكانت السلطة التنارية (الشعوبية أو العربية بالاسم) لا تسمح بوجود مفكر حقيقي. . وهي في أكثر أحوالها تسامحاً، كانت تسمح بقطع رأسه وإحلال البديل على كتفيه: رأس من شمع!

ومهما كان حرص السلطة التنارية (العربية بالاسم) على العناية الظاهرية بنفسها، وبسمعتها، وبديكورها، فإنها لم تتورع عن انتهاج كل الأساليب الممكنة، بما فيها الأكثر فظاظة، لمحاربة (الفلسفة)، وهذا ما حدا ببعض المفكرين والمستشرقين الغربيين إلى تشخيص العقل العربي - في مراحل عديدة - بأنه عقل غير فلسفي، كما تشدد وغالي في ذلك (رينان).

لقد كان تاريخ السلطة العربية التابعة، أو من الأنموذج الاستبدادي، هو تاريخ محاربة الفلسفة أولاً، والحيلولة دون تحول الفلسفة إلى علم ثانياً، والوقوف ضد تحول العلم إلى سلاح بين العناصر الواعية في المجتمع ثالثاً. وإلا، هل كان من المعقول أن العرب كانوا عاجزين عن صنع قاطرة بخارية،

بخارية، أو مطبعة، لو نالت حقها في التطور التاريخي المنسجم . لقد كان الكثير من العلماء والفلاسفة اليونانيين، والرومان قد درسوا في مصر وفي بلاد وادي الرافدين لسنوات . فلم يكن صعباً على بلدين هما مهد الحضارة - لو أتيت لهما الظروف الطبيعية المستمرة للازدهار الحضاري - صنع أدوات صناعية فعالة، سبق أن صنعا ما يماثلها قبل قرون!

وبعيداً عن الجمال الظاهري للدعاء بعظمة حملة نابليون وقيمتها في إرساء منطلق نهضوي حديث على أرض مصر، وبعيداً عن الولوج التقدمي بهذه الصورة من العرض والتحليل، نعود إلى التاريخ نفسه، لأن سجلاته تدخر المعلومات الصحيحة والضرورية لكل رؤية سليمة .

فنايليون بونايرت دشّن مرحلة النهوض الاستعماري الفرنسي الضخم، وتسلم الأبناء والأحفاد الفرنسيون الرسالة الاستعمارية . فلنقرأ ما قاله روفيفو Rovigo [الذي تولى منصب وزير الشرطة أيام نابليون بونايرت، ثم عين حاكماً عاماً للجزائر] في تصريح له عام ١٨٣٢؛ قال: «يلزمني أجمل مسجد في المدينة (ويقصد مسجد كتشاوه، والموجود حالياً في ساحة ابن باديس، وهو موجود منذ القرن الرابع عشر، وتعرض لتشويع مرعب سنة ١٨٤٥ م، وحوّله الفرنسيون إلى كنيسة، ثم استعاده المسلمون عام ١٩٦٢)، لنجعل منه معبد إله المسيحيين» وخاطب رجاله قائلاً: عجلوا بذلك فجامع كتشاوه هو أجمل مسجد في المدينة» .

إن الأمر المُستغرب في هذا السياق - كما يرى د . أسعد السمحراني بحق - هو أن الفرنسيين كانوا حاربوا بواسطة الكنيسة في بلادهم . وأصبحوا يحكمون بحكومة لا دينية، وفي الوقت نفسه، كانوا يحاولون تحقيق أطماعهم، وبسط نفوذهم الاستعماري تحت شعار الدين المسيحي، ولكن غير المستغرب أن المخطط الاستعماري التصفوي كان يهدف إلى تدمير القدرة الوطنية بكل مصادرها التاريخية، والإسلامية بخاصة . فلجأ الفرنسيون في الجزائر لا إلى جلب التراكاتور، بل إلى إحراق المزارع، ومصادرة الأراضي . لا إلى رعاية المعتقدات والحريات بل إلى تدمير المساجد، لا إلى بناء المدارس بل إلى إغلاق الكتابات، وفق سياسة استعمارية مصممة تصميماً

وسكة حديد، في حين كان لديهم ابن سينا وابن رشد والحسن بن الهيثم، وجابر بن حيان، وجمهرة العلماء والمفكرين والفلاسفة؟!

هنا، تنتقل إلى الوصاية الجديدة التي مهدت لها فرصة الانهيار المحتوم للوصايات التتارية والمحلية، والشلل الفكري الهائل لهما، تلك هي الوصاية الأجنبية التامة، أي الأجنبية قومياً ودينياً . فلقد نظرت القوى الاستعمارية الطامعة إلى أرض العرب، أرض الخيرات (المادية) و(البركات الإلهية)، فقررت غزوها واحتلالها، ولم يكن منطقياً إظهار الدوافع كاملة، فكان لا بد من التستر والادعاء بالحرص على تطور الشعوب والأمم الشرقية والعناية بها، وإنقاذها، وكان الستار الديني جاهزاً أيضاً .

لذلك ابتدأت طلائع الاستعمار بكتائب التبشير . وطلب المبشرون دوراً كبيراً في الدراسة، والتهيئة، والتمهيد لكل غزو استعماري لاحق . وقد وقع في خطأ التحليل العديد من الكتاب العرب الذين لم يوجهوا مدافعهم الفكرية إلى الوصاية الأجنبية الجديدة، وبدلاً من ذلك قاموا ببذل جهد تنظيري للقول بأنها منطلق النهضة الفكرية العربية . ومنهم من يرون في حملة نابليون بونايرت على مصر (عام ١٧٩٨) البداية النهضوية الحديثة، وأن إدخال نابليون المطبعة كان من العلامات البارزة لذلك .

في الحق، كان المفروض النظر إلى حملة نابليون بونايرت - مثلاً - على أنها عملية وصاية مزدوجة، وصاية بشر استعماريين، ووصاية أدوات . فالبشر الاستعماريون يبحثون عن مصادر المواد الخام، والمناجم، والأماكن الاستراتيجية والغنية، كما يبحثون عن الأسواق، وعن الأيدي العاملة الرخيصة . ولا يغيّر من هذا التحليل ألف نابليون بونايرت، أو أي كائن آخر سواه .

أما وصاية الأدوات فهي المعبر عنها في التحليلات السياسية والأيدولوجية والاقتصادية، بمؤثرات سكة الحديد، أو المطبعة، في النقلة الحضارية للهند، أو لمصر، أو لأي قطر آسيوي آخر .

وكما ورد قبل حين، فإن مصر لم تكن عاجزة عن صنع قاطرة

خاصاً، وقائمة على القوة كما توضح ذلك الرسالة التي بعث بها الحاكم العسكري (بيجو) إلى وزير الحربية (سولت) والرسالة معنونة :

«إدارة الذاتية - العمليات العسكرية» الجزائر في ١٨ تموز ١٨٤٥ .

سري

سيدي المارشال

ينبغي أن تعطي الجمهور أفكاراً أصح عن ضرورة القيام بأعمال قاسية لإتمام خضوع البلد خضوعاً حقيقياً، وبدون ذلك لا يمكن أن يوجد استعمار، ولا إدارة ولا حضارة، إذ لا بد من أن يقبل السكان قانوننا من قبل أن ندير ونحضر ونستعمر، وقد برهنت آلاف الأمثلة على أنهم لا يرضون بقانوننا إلا بالقوة، وهذه القوة عاجزة إذا لم تتل من الأشخاص والمصالح وهذا ما ينبغي ألا نكف عن تكرار قوله حتى يفهم»^(١).

إن هذا الغطاء المزركش : الادعاء بالتحضير، والذي ينطلي على عقول عربية نهضوية^(٢) يسعى لاختفاء حقيقة أساسية وهي أن الجزائر كانت مستهدفة استعمارياً من قبل فرنسا لنهب خيراتها . وإن الجزائر كانت ذات فضل على فرنسا بما قدمته إليها من قروض ومساعدات .

ففي ذلك العام الذي كانت فيه حملة نابليون بونابرت متجهة إلى مصر عام ١٧٩٨، والتي رأى فيها البعض من الكتاب التقدميين مطلع عصر النهضة المصرية الحديثة، كانت ديون فرنسا للجزائر قد بلغت مبلغ ٧ ملايين فرنك فرنسي^(٣).

وكانت الجزائر «بلغت مرحلة من التطور الاجتماعي والاقتصادي حسدتها عليه الدول الأوروبية الغربية، ووصلت الجزائر من القدرة الاقتصادية ما جعلها تقدم القروض والمساعدات إلى فرنسا»^(٤).

لقد كان الهدف الاستعماري تام الوضوح، وهو يسعى إلى تذويب الشخصية العربية الإسلامية للجزائر بكل الأساليب

والوسائل الممكنة، وكانت أكثر الوسائل خطورة أعمال الإبادة الوحشية للمسلمين، ونشر الأمراض والأوبئة وإهمال الشؤون الصحية، وإفساح المجال للإرساليات التبشيرية للقيام بمهمتها التي كانت تسميها سياسة التنصير إهداءً، والتركيز على الأطفال في هذه السياسة، بصورة خاصة، وكذلك تشجيع الهجرات إلى الجزائر، وفي عدادها اليهود وكل شذاذ الأفاق ممن ترمسوا بالقتل والنهب، وكان فيها بالإضافة إلى التجار والموظفين والعسكريين الفرنسيين، مهاجرون أوروبيون من مختلف الجنسيات .

في سياق الوصاية الاستعمارية الجديدة التي استغلت الفجوات الكبرى في مسار الحركة العربية، والتي باعدت فيما بين عوامل التقدم الحضاري القومي، نشأت ازدواجية جديدة، على النطاق العربي، تلك هي الانطواء على قطبين متناقضين : قطب التمرد على الاستعمار والوصاية الاستعمارية الجديدة، وقطب الأخذ بمقولات ومفردات هذه الوصاية .

إن مفاهيم الحرية، الاخاء المساواة، الوطن، القومية، الديمقراطية، الليبرالية، الشيوعية (إلخ . . .)، مأخوذة من المجتمعات التحكومية المسيطرة على الشعوب والأمم المغلوبة . ومعها أخذت بعض صيغ بناء الدولة وال عمران، والتخطيط، والترفيه الخاص .

ومن الواضح أن (الأخذ) لم يجر في عملية تفاعل حر صحيح ومسؤول وقائم على الفرص المتكافئة، وعلى مبادئ التضامن الإنساني النزيه .

هذا يعني أن (الأخذ) بصيغته هذه، كان يعني - بالنسبة إلى العرب - خسران عناصر ومقومات أساسية (أو أقل) في التبلور المستقل للعقل العربي الذي تعرض إلى غزو البشر الاستعماريين، وغزو الأدوات المحدودة، وغزو الأفكار، في زمن الخواء الفكري، والجمود، والضياع، والاستلاب، والترويح الاستعماري لفكرة قابلية العرب لأن يكونوا مستعمرين - بفتح الميم الثانية -

إذن فإن المسافة التاريخية بين العصر الإسلامي المجيد، عصر القيادة الذاتية للشعب العربي المسلم، [والذي تحقّق فيه أرقى نموذج للاستقلالية القومية الفكرية، في إطار الوحدة الإسلامية

(١) غارودي : حوار الحضارات . . .

(٢) بسام العسلي : الجزائر والحملات الصليبية .

(٣) و(٤) المصدر نفسه .

المتضامنة]، وبين عصر الاستقلال السياسي المعاصر، هي من أطول وأعقد المسافات في تاريخ الأمم والشعوب، وهي ملأى بخزين هائل من عوامل أزمة العقل العربي، والمباعدة بين الواقع والأصالة التاريخية للفكر العربي، والتي هي تعبير مكثف عن أصالة الوجود العربي ذاته.

تشخيصات قريبة للأزمة البعيدة للعقل العربي :

إن المسافة الزمنية الهائلة التي تحدثنا عنها، لم تستطع قهر الاستمرارية القومية للوجود البشري العربي. ولكنها خلقت في طياتها الفجوات الهائلة المشحونة بالعوامل التقليدية لأزمة العقل العربي.

وبغية تحديد تشخيصات قريبة أيضاً للأزمة المذكورة، وهي تشخيصات لا تزال قائمة منذ ابتداء عصر النهضة العربية، يجب القول أن ضحَّ العوامل المتجددة للأزمة إضافة إلى العوامل التقليدية أمرٌ وارد باستمرار، نظراً إلى أن الشروط المادية لتوليد العوامل الجديدة للأزمة لم تتقهقر.

إن العقل العربي الرسمي السائد - بالمعنى القومي - هو عقل لا عقلاني يتسم بالسطحية والتكرار، والتكوير على الفراغات، والدوران حول الذات على نحو ذاتي مفقر. وهو يفرط بالابتكارية، والابداعية، والاجتهاد، ويرمي على الجانبين كل عقلانية ناضجة، على اليمين أو على اليسار، فيما تظل آتة المتحركة على الخط آلة شبحية، تقليدية مسطحة، كلامية.

إن العقل العربي الرسمي السائد منذ قرنين هو العقل الهارب عن العقل، الذي يتجاور مع الأشياء فلا يحتويها، لينفعل دون أن يكون فعالاً. وهو عقل وضعي بدون استبطان، وتأشيري بدون علم، وتخيلي بدون رؤيا.

إنه مثل عملية نحت بلا مجسمات!

وقد فرط العقل العربي المعاصر بأصوله العقلانية لصالح نظرية كلامية خارج نطاق العلم.

وليس معنى العقلانية مفهوماً عن المفاهيم التي تعج بها قواميس الصراعات الفكرية، أي العقلانية بمواجهة الإيمان والنقلية، والمثالية، بل العقلانية بمعناها العربي، أي إطلاق وظائف العقل الإبداعية بحرية تامة، في مجراها الإنساني.

فالأصول العقلانية للعقل العربي موجودة في فكر ابن سينا وابن رشد والفارابي وابن طفيل، دون أن تنعدم مظاهرها في فكر الغزالي وابن ربيع والروحانيين الكبار، بصورٍ أو بأخرى. إن العقل العربي، وبسبب كل ما ذكرنا، عقل أحادي النزعة يختار خطأ واحداً، وإذا ما تحول عنه هجره نهائياً إلى خط مناقض. ومبعث ذلك هيمنة التكريس السايكولوجي القديم للتكون الطائفي والعشائري الموجود في طبقات نفس الفرد، والذي يستنطق على صورته أفكاره بشكل قبلي، طائفي، بكل ما يحمله ذلك من تعصب فكري هو التجلي الظاهر والمبطن للعصبيات الطائفية والقبلية أيضاً.

وتكاد هيئة العقل العربي تُشابه التورث البيولوجي للخصائص الجسمانية المتشابهة، فالعشائرية والطائفية تستدرجان الأفكار، وتعيدان صياغتها بصورتها.

لذلك، ورغم كثرة واتساع ميادين النشاط الفكري العربي، فإنما الضيق هو البادي، لأن النزعات (المحاورية) المتعصبة، والمحتربة هي التي تفرط بالاشعاع، وتجعل الميدان الفكري الرحيب في أضيق صورته.

ومن الواضح، أن العقل العربي عقل جزئي، أي أنه إما أن يكون فلسفياً بلا سياسة، أو سياسياً بلا فلسفة، أو تاريخياً بلا منهج فلسفي، أو جغرافياً بلا رؤية سياسية، أو دينياً بلا سياسة، أو أدبياً بلا فلسفة، وهلمجراً.

في حين أن العقل العقلاني هو عقل كلي يتغلغل في جميع حقول المعرفة والعلم، ويختار جميع المواسم والفصول لاكتشاف ذاته وقدراته.

إن مجهودات عقلانية كبيرة وواسعة، موجودة في التاريخ العربي المعاصر، لكن الموضوع - ما دام الحديث عن العقل العربي وأزمته - هو موضوع الائتلاف الجماعي للعقل العربي، بصورة رسمية من الناحية التاريخية، أي قادرة على أن تكون مركز الثقل الفعال في الحياة العربية أولاً، وفي الفكر العالمي ثانياً، كما كان ذلك في العصور الوسيطة.

وهذا يقود إلى تأشير نقطة بالغة الأهمية، وهي لاديمقراطية العقل العربي، في ظل النقابية العقلية الاحترافية، التي تضع الاضطراب الداخلي وعوامله أمام الهدف، وكأن الهدف لا

يعنيها. إن فقدان الروح الديمقراطية هو نتاج عصور الانحطاط والتدهور، والحكم الفردي الشاذ، وتطبيع المجتمعات تطبيعاً غنمياً (من الغنم!)، وانتشار العادات والمؤثرات الأجنبية التي لا صلة لها بالأصالة العربية الحرة والمستتيرة.

إن قصص سفك الدماء والافتتال بين القبائل العربية في تاريخ العرب هائلة العدد، وهذا بحد ذاته لا يعني شيئاً أكبر من دلالته، لكن الأكثر هولاً، هو عناية العرب بتسجيل تاريخ القتل، في دواوين شعرهم، وفي قصصهم وفي أحاديثهم، وفي وصايا الآباء للأبناء.

إن في ذلك دلالة خاصة، ودقيقة جداً، هي البحث عن الفوز الذاتي بالقوة، وهو فوز سادي، يستتبعه خسران آخر عربي أيضاً. فالماحق السادي عربي والممحق عربي، وبذلك (بأكل اليباس الأخضر) كما يُقال.

إن غياب الديمقراطية يقتل العقل، ويضع أكبر مجموعة من الناس خارج نطاق الحضارة، والفعالية الحضارية، فتظل خاملة، سلبية، شديدة الخنوع، أشبه بهضبة رملية تتكون في عرض النهر فتقطع مجراه.

وليس التعصب السياسي والعشائري والطائفي وحده المسؤول عن أزمة العقل العربي، بل إن العقل العربي المصاب بالعصية المتعصبة، هو مظهر من مظاهر مأساة العقل، والحضارة معاً.

ثمة قضية مستساغ طرحها - هنا - وإن كان ضرورياً طبعاً تلك هي قضية الانجرار وراء العقل الغربي والحضارة الغربية، والتي واكبت الانطلاقات الوطنية الحديثة لأقطار الأمة العربية، والتي تمجد العلم الغربي والحضارة الغربية، وتريد «التأورب» بأي ثمن.

إن تناسي خصوصيات التطور القومي الحضاري أمر ضار جداً، ويلحق الأذى بمصائر الأمم والشعوب.

وأي وقفة نقدية جديّة بمواجهة حضارة الغرب، توضح «أن الغرب لم يكن قادراً على تحقيق تقدم موازٍ في العلاقات الاجتماعية. ففي خلال ربع قرن من الزمن أدى شن حربين عالميتين ضروسين إلى تدمير المدنية، وإفناء زهرة شباب

العالم، وإسلام ملايين أخرى إلى الفقر والمرض والبطالة. لقد كانت هذه صدمة كبرى للبشرية، ولكن الصدمة التي كانت أشد هولاً وعتفاً هي - في الحق - الاستعمار الغربي بشكله القديم والجديد الذي أدى إلى تجزئة العالم العربي - وغيره من بلدان العالم القديم - وإخضاعه لنفوذ القوى الغربية الكبرى. إن هذه الصدمة كانت من عمق التأثير، والخطورة بحيث أن المثقفين العرب - أسوة بأقرانهم من مثقفي العالم الثالث - الذين طالما امتلأوا حماسة للفكر الغربي تحولوا إلى خصوم لدودين للغرب.

لقد أدرك هؤلاء المثقفون أن هناك تناقضاً كبيراً وحاداً بين المثل العليا والنظريات من جهة، وبين تطبيق هذه المثل والنظريات من جهة أخرى. فالديمقراطية البريطانية تحولت في مصر والسودان والعراق مثلاً إلى اضطهاد وقمع، والثورة الفرنسية المجيدة تحولت في المغرب العربي وفي سوريا إلى مجازر سيئة الصيت ضد الوطنيين العرب، إلى محاولة محو اللغة العربية وثقافتها ونسف أي جسر يربط المواطنين بتراثهم»^(١).

إن معطيات الحرب والاستعمار ليست معطيات الحضارة عموماً، بل هي معطيات الحضارة الغربية بطبيعتها الرأسمالية، المادية، الربحية، التي مثلت الارتداد المادي الحاد على عسف الكنيسة في عصور الظلام الأوروبي.

أي أن الانتقال الارتدادية كانت مضيعة للمعاني الروحية والانسانية للحضارة، تحت وطأة السيطرة التامة لمنافع العلم المادية والمالية والاستحوادية.

لقد انتقلت أوروبا لنفسها، فتحررت من سجنها الكنائسي لتدخل الشعوب المستضعفة في سجنها المادي.

هنا، تتجلى قيمة معرفة الخصوصية العربية، في البناء الحضاري. فالوطن العربي هو الوطن التاريخي للديانات، بمعنى أنه وطن أنموذجي لما يُسمى بالروح الشرقية، تلك الروح التي تُعنون قصة حياة آلاف السنين، وهي قصة لا يمكن محوها، لأنها قصة أقوام ومجتمعات وشعوب، وأمة.

إن الخصوصية العربية [التي لا نفترضها، أو نتخيلها] قائمة

(١) د. فيصل السامر: الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي - منشورات الجمعية العراقية للتاريخ والآثار - ١٩٧٢.

في صلب التاريخ العربي الطويل، يُحاول المتخلفون جرّها، باتجاه الخرافة والركود والتحجر ويعمد بعض العلميين إلى نسيانها.

إن الحل العصري والتاريخي مائل في مزوجة العلم بالتجربة الروحية العظيمة، في إطار خصوصية قومية، إنسانية شديدة التفتح والانفتاح والتفاعل. ولا يمكن التهرب من تلك الحاجة العاصفة للوسائط التوسيطية للتطور العربي والتي تجمع العلم المادي بالخبرة الروحية، والذات القومية بالذات العالمية، والفرد بالجماعة، دونما تفريط بجانب على حساب آخر.

سيفهم المترمتون، في المنهج النظري أن ذلك التحديد للحاجة هو نوع من التوفيقية النظرية، فليكن لهم ذلك، علماً بأن التوليف النظري أكثر دقة - في التنظير - من التوفيقية النظرية. وهو توليف تقرره وتحتمه حاجات التطور الذاتي والموضوعي للأمم عربية طالما أزمته قهرها على يد نفسها، كما على يد سواها.

والواقع ان الديمقراطية الفكرية تقدم حلولاً رائعة لمشكلات التعصب، والتناحر، والتزمت، وهي - أيضاً - تجسّد خصوصية التطور الروحي للحياة العربية المشرقة في التاريخ.

إن الديمقراطية ليست مقطعية، أو قومية. بل هي تكامل رأسي وأفقي تسوح العقول في أجوائه بحرية فعّالة.

وضروري جداً - هنا - الإشارة إلى أن العقل العربي لا يحل

أزمته في الندوات، والتجمعات، والمحاضرات، في المدارس، والمعاهد، وأدوات الثقافة والإعلام، إذ لا بد أن تتواكب الأنشطة العقلية مع تطورات اجتماعية حضارية، ملائمة، تشكل الأساس المادي للنهضة العقلية.

فالركائز الصناعية والزراعية الحديثة، وتطوير بنى ومؤسسات الدولة تطويراً عصرياً، إنسانياً عادلاً، وضمان سلطة الحق سياسياً وقضائياً، وحماية حقوق الفرد وحرياته وسواها من شروط تقدمية أخرى هي أسس ضرورية وحاسمة في التغيير.

وثمة قضية ذات قيمة حاسمة في التنشئة القومية للعقل. تلك هي قضية التفاعل، فموجب التطرف في الاستقلالية، والفهم الخاطيء للأصالة يغلق المحافظون، التقليديون، الأبواب والنوافذ على أنفسهم، وعلى بلدانهم، للحيلولة دون قيام تفاعل ثقافي، علمي صحيح.

والواقع أن التفاعل أمر محتوم، لا رادّ له، مهما شاء المحافظون. لكن ثمرة تلك المشيئة السلبية والتفاعل الاضطرابي هي انحراف عملية التفاعل، وعشوائيتها.

وبالمقابل، فإن الانفتاح المطلق أمام تيارات الفكر الغربي ومعطياته الحضارية والثقافية، بموالاتة تامة، تهدر - بأسرع وقت - الكثير من مصالح المجتمع وحاجاته التاريخية.

بغداد.

دار الآداب تقدم

دراسات إسلامية

سلسلة الاسلام الحضاري

- د. صبحي الصالح
- د. أحمد علي
- د. علي حسني الخربوطلي
- د. علي عيسى عثمان
- ترجمة د. عفيف دمشقية
- ترجمة د. عفيف دمشقية.

- الاسلام والمجتمع العصري
- ثورة العبيد في الإسلام
- ١٠ ثورات في الإسلام
- فلسفة الإسلام في الإنسان
- إنسانية الإسلام
- كيف نفهم الإسلام